الإسلام والشرك والنفاق

للأستاذ محمد عبد الرحمن البيلي

رأى المشرع الإسلامى : أن يُبْقِىَ على فريضة الحج ، والحج معروف فى تضاعيف الزمان ومن أقدم العهود ، أبقى عليه المشرع الإسلامى إبقاء مهذباً مطهراً خالصاً من أدران الشرك ومن دنس الاعتقاد الرجس . أبقاه الإسلام ، بعد أن أفرغ عليه من جلال التوحيد ، وأفاض عليه من معانى التقوى ما جعله منسكاً حافلاً بالخير .

وأى خير أوفر من شهود المنافع وتعرُّف شؤون الأقطار الإسلامية ، وشدّ أواصر المجتمع وإعداد النفوس لتلقّى أسمى الفيوضات واستلهام الهدى واجتماع الكلمة ؟

ونحن بسبيل أن نبين كيف اختار الإسلام موسم الحج ميداناً لإصلاح اجتماعى خطير ؟ هذا الإصلاح هو : مهاجمة النفاق والكشف عن المنافقين وتمييزهم عن المجتمع ونبذهم ، بعيدين عن المؤمنين لكى يسلم للأمة خلقها وتصح عناصرها ...

* * *

أنزل الله على رسوله — صلى الله عليه وسلم — فى ختام ما نزل من القرآن سورة « براءة » ، أو السورة « الفاضحة » التى فضحت الشرك وكشفت عن المنافقين ، أنزلها الله فى السنة التاسعة من الهجرة فى موسم الحج .

وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم — من قبل ذلك — يعرف خصومه من المشركين السافرين فيحذرهم وينكل بهم . ثم كان يعرف — أيضاً — أن بين أتباعه بعض المنافقين ، فكان لا يجبههم ولا يكشف عن أضغانهم ولا يبرز للمسلمين دخائل نفوسهم ، إبقاء على الدعوة الإسلامية وهى فى دور النمو والتكوين ، حتى لقد بلغ من قسوة تلك الحالة على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه ، أن صاروا فريسة لكايد النفاق وهدفاً لمؤامرات المنافقين يدلون المشركين على عورات المؤمنين ويوضعون خلالهم يبغونهم الفتنة ومع هذا ، هم لاصقون بالجماعة المحمدية ...

« يحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ، ولكنهم قوم يفرقون »

وقد بلغ من خطر النفاق على المجتمع يومذاك — أن وقعت أزمة حربية عنيفة للرسول — صلوات الله عليه — ولأصحابه ، فكانت سانحة للمنافقين ، أرجفوا فيها بموت محمد عليه السلام لتثبيط العزائم ، وتمكين الهزيمة ، والمؤمنون فى ساعة عصيبة يجممون شملهم ويربطون على قلوبهم ، والرسول عليه السلام ثابت فى مكانه لا يريم

تلك الحوادث أبانت عن أنه لا يزال بين المجتمع الإسلامى — بل وسط جماعة المسلمين — قلوب مطوية على الإحن تتربص بالإسلام وبالرسول الدوائر

وإنها لحال تنغص على المسلمين أمورهم ، وتهدد كيانهم وتقلقل مجتمعهم

وقد كاد صبرهم ينفد يوم وقف واحدٌ من هؤلاء يعيب على رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمه للصدقات ويغمز العدالة المحمدية . هذا الرجل هو « ذو الخويصرة التميمى » دفع به النفاق ، فخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : إعدل يا محمد ... ولا ، والله ، ما قصد ذو الخويصرة عدلاً ولا طلب حقاً . ولكنه قصد إلى أن يشكك الناس فى العدالة المحمدية ، وينبه الأطماع ، ويثير الإحن . فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « ويلك ، من يعدل إذا لم أعدل ؟ »

واستمع لهذا الحوار الرجل المؤمن حقاً عمر بن الخطاب ، فعرف أنها دسيسة . فقال : يا رسول الله ، ائذن لى فأضرب عنقه ، فأخذ صلى الله عليه وسلم يُهَدِّئ من نفس عمر ، ويذهب عنه الغضب ، ويقول : لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه

ونزل فى تلك الحادثة من السورة « الفاضحة » قول الله تعالى :

« ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يُعطَوْا منها إذا هم يسخطون »

بقى النفاق — هذا الوباء الأخلاقى — يأكل فى أجزاء من جسم المجتمع ، ولولا صدق اليقين ، ومناعة الجسم ، لأودى النفاق بالدعوة الإسلامية

* * *

إن لله مواقيت تنتهى لديها أمور وتبدأ من عندها أمور . فلما أذن الله بافتضاح هـذا النفاق ، وشاء للمنافقين أن يشهّروا ويسلّموا ويؤخذوا بسيماهم ، ثم يعزلوا ـ مرضى موبوئين ـ عن بقية المجتمع السليم ، اختار — عز وجل — لذلك وقتاً علا فيه شأن الإسلام ، وتمت له الكلمة ، وأثخن المسلمون فى أعدائهم أسراً وقتلاً واستيلاء وغلبة . فليس يخيفهم أن يبتروا الأعضاء السقيمة العليلة

وكانت الحياة المحمدية المباركة قد آذنت بالانقضاء ، ولا بد من صيانة مجتمعه وشريعته ودينه من هذا المرض ، مرض النفاق المدمّر الفتاك

عند ذلك أنزل الله سبحانه وتعالى السورة « الفاضحة » كما ورد عن ابن عباس رضى الله عنه : نزلت تفضح النفاق ، وتكشف عن المنافقين ، وتصور ألوانهم وأقوالهم ، وتطلع المؤمنين على دخائل نفوسهم ، وتنشر للملأ مطويات سرائرهم ... وقد كانوا من قبلها يخافون ذلك ويحذرونه

« يحذر المنافقون أن تُنَزَّل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم » ولكن الله أوقع بهم ، فكان ما يحذرون ووقع ما يرهبون

* * *

اختار المشرع الإسلامى غزوة من غزوات المسلمين ، جعلها اختباراً أخيراً للمنافقين . وهى : غزوة تبوك ، آخر الغزوات فى حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وكان الوقت عسيراً والبلاد جدباء ، والحر لافحاً والشقة بعيدة ، والأعداء هم الروم الأقوياء الأغنياء

هنا أخذ النفاق يطل برأسه ، وينفث فى العقد ، ويبعث التخاذل ، ويحبب التقاعد بين الجيوش الإسلامية . فقال جماعة المنافقين وعلى رأسهم كبيرهم « عبد الله بن أبى » : « أيغزو محمد بنى الأصفر (الروم) مع جهد الحال ، وشدة الحر ، والبلد النائى ؟ أيحسب محمد أن قتال بنى الأصفر لعب ولهو ؟ والله ...

لكأنى أنظر إلى أصحابه مُقَرَّنين فى الأصفاد »

ثم أخذ المنافقون يقولون : لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حرًّا لو كانوا يفقهون

وهكذا جعلوا يعتذرون عن الخروج بأعذار تافهة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلها ، حتى عاتبه القرآن فى ذلك وعفا عنه : « عفا اللهُ عنك ، لِمَ أذنتَ لهم حتى يتبيَّن لكَ الذينَ صَدَقوا وتعلمَ الكاذبين »

عرفت السورة « الفاضحة » أو سورة « براءة » المنافقين ، وحددت أوصافهم : فمنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أُذُنٌ ومنهم من يلمزك فى الصدقات . ومنهم من عاهد الله ثم أخلف عهده . ومنهم ، ومنهم ...

ثم خاطب الله رسوله عليه السلام الخطاب الحاسم فى شأنهم فقال : « سيحلفونَ بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتُعْرِضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون »

ولقد نكل الله بالشرك فى تلك السورة فسميت « المنكلة » وأزرى واحتقر النفاق ورسمه بأنه رجس ، فافتضح النفاق

وجاء صدر تلك السورة قضاء حاسماً على بقية الشرك ، وإبادة لمرضه الخبيث فى أنحاء الجزيرة العربية

فقد اجتمع إلى الشرك مآثم وأوزار وشناعات ، لا مناص من القضاء عليها تطهيراً للمجتمع وإصلاحاً للأمة

* * *

وفى السنة التاسعة للهجرة أمَّرَ النبى عليه السلام على الحج « أبا بكر » الصديق . فلما نزلت السورة — المنكلة الفاضحة — بعث صلى الله عليه وسلم ابن عمه على بن أبى طالب على ناقته العضباء ليقرأ فى موسم الحج على الناس كافة صدر السورة المنزلة ، قضاء على الشرك والمشركين ، فلما دنا على من أبى بكر سمع أبو بكر رغاء الناقة ، فوقف وقال : هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما لحقه علىّ قال له أبو بكر : أمير أم مأمور ؟ قال : مأمور

فلما كان يوم الحج الأكبر ـ يوم النحر ـ عند جمرة العقبة قام على فقال : « أيها الناس ، إنى رسول رسول الله تعالى إليكم » فقالوا : بماذا ؟ فقرأ « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله ، وأن الله مخزى الكافرين ، وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم

الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسولُه » إلى آخر الآيات الثلاثين أو الأربعين من السورة

ثم قال : « أمرت بأربع : ألا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة ، وأن يتم كل ذى عهد عهده »

وفى هذا الموطن الحاشد ، وبهذا البيان القاطع تقررت حياطة المجتمع ، وصيانة التوحيد ، كما تقرر — فى أثناء السورة — إبراء المجتمع من داء النفاق بإقصاء المنافقين وتمرفهم بسيماهم ؛ ثم نبذهم أحياء أو ميتين

« ولا تُصلِّ على أحد منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره »

« يحلفون لكم لترضوا عنهم ، فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين »

* * *

انتهى أمر النفاق ، وانتظم شأن المجتمع الإسلامى . فلما كان العام التالى ، أراد صاحب الشريعة عليه السلام أن يحج ، وتَرامى ذلك إلى أقطار الجزيرة ، فانثال الناس من كل حدب ، حتى بلغ الحجيج مائة ألف أو يزيدون . وفى يوم الحج الأكبر ، خطب صاحب الشريعة خطبته الجامعة التى بين فيها أصول الدين ، وحقوق الإنسان وأعلن فيها المساواة ، وحقن فيها الدماء وبين الحدود ، وحشد فيها الفضائل الإسلامية

وزاد فى جلال الموقف ورهبته إشعار النفوس أن محمداً عليه السلام يودع المسلمين ويتوقع اقترابه من اليوم المحتوم ، ويستشرف إلى الرفيق الأعلى

قال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله ، نحمده ونستغفره ونتوب إليه . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ... أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعة الله ، وأستفتح بالذى هو خير . أما بعد :

أيها الناس ، إسمعوا منى أُبيِّن لكم ، فإنى لا أدرى ... لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا ، فى موقفى هذا

أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتمنه عليها . وإن ربا الجاهلية موضوع

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد

إن لنسائكم عليكم حقاً ، فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عَوانٍ أخذتموهن بأمانة الله ، فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيراً

أيها الناس ، إنما المؤمنون إخوة ، فلا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفسه . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد

فلا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض ؛ فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد

أيها الناس . إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ؛ كلكم لآدم ، وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس يُعرف فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم : قال : فليبلغ الشاهد منكم الغائب ... »

بتلك الخطبة الحافلة بأسمى المعانى الإنسانية ، تمت كلمة الله صدقاً وعدلاً ، فاكتمل أمر الدين ، وأتم الله نعمته على المؤمنين ، وقد أنزل الله فى أعقاب ذلك من سورة (المائدة) : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

أقام صلى الله عليه وسلم بمكة بعد ذلك عشرة أيام . وأخذته نوازع الشوق وهو فى موطنه الأول (مكة) إلى موطنه الثانى ، إلى دار الهجرة ، فسار إلى المدينة ...

ولما أشرف عليها ، وبدت أعلامها كبَّر ثلاثاً وقال :

« لا إلٰه إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شىء قدير ... آيبون ، عابدون ، ساجدون ، لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبدَه ، وهزم الأحزاب وحده

محمد عبد الرحمن الجديلي

معهد التناسليات

معهد التناسليات تأسيس الدكتور مأمون [illegible] فرع القاهرة بعمارة [illegible] شارع [illegible] تليفون ٥٢٥٧٨ يعالج جميع [illegible] والأمراض التناسلية والعقم عند الرجال والنساء وتجديد الشباب [illegible] ويعالج بصفة خاصة [illegible] طبقاً لأحدث الطرق العلمية والعيادة من ١٠-١ ومن ٤-٦ . ملاحظة : يمكن إعطاء نصائح بالمراسلة [illegible]

سجل تجارى ٥٢٢٧